- ١٧ -

إعجاز القرآن

هذا الكون الفسيح الذى يعج بمخلوقات الله تضاءلت جباله الشامخة ، وبحاره الزاخرة ، ومهاده الواسعة ، أمام مخلوق ضعيف هو الإنسان ، ذلك لمَا جمع الله فيه من خصائص ، وما منحه من قوة التفكير التى تشع فى الأرجاء لتُسَخِّر عناصر القوى الكونية ، وتجعلها فى خدمة الإنسانية ، وما كان الله ليَذر هذا الإنسان دون أن يمده بقبس من الوحى بين فترة وأخرى يقوده إلى معالم الهدى ليسلك دروب الحياة على بيِّنة وبصيرة ، إلا أن غلواءه الفطرى يأبى عليه الخضوع لقرينه من بنى الإنسان ما لم يأت له بما لا يستطيع حتى يعترف ويخضع ويؤمن بقدرة عُليا فوق قدرته ، فكان رسل الله الذين يتنزل عليهم الوحى ويؤيدهم الله بخوارق العادات التى تقيم الحجة على الناس فيعترفون أمامها بالعجز ، ويدينون لها بالولاء والطاعة ، ولكن العقل البَشرى كان فى أطوار نموه الأولى لا يرى شيئاً يأخذ بلبه أقوى من المعجزات الكونية الحسيَّة حيث لا يرقى عقله إلى السمو فى المعرفة والتفكير ، فناسب هذا أن يُبعث كلِ رسول إلى قومه خاصة ، وأن تكون معجزته فيما نبغ فيه قومه خارقة لما ألفوه ليتحقق بعجزهم عنها إيمانهم بأنها من قُوَى السماء ، فلما اكتمل العقل البشرى أذن الله بفجر الرسالة المحمدية الخالدة إلى الناس كافة ، وكانت معجزتها معجزة العقل البشرى فى أرقى تطورات نضجه ونموه ، فحيث كان تأييد الله لرسله السابقين بآيات كونية تُبهر الأبصار ولا سبيل للعقل فى معارضتها ، كمعجزة اليد والعصا لموسى ، وإبراء الأكمَهَ والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله لعيسى ، كانت معجزة محمد ﷺ فى عصر مشرف على العلم معجزة عقلية تحاج العقل البشرى وتتحداه إلى الأبد ، وهى معجزة القرآن بعلومه ومعارفه ، وأخباره الماضية والمستقبلة ، فالعقل الإنسانى على تقدمه لا يعجز عن معارضته لأنه آية كونية لا قِبَلَ له بها ، ولكن عجزه لقصوره الذاتى ، فيكون هذا اعترافًا منه بأنه وحى الله إلى رسوله ، وأن حاجته إلى الاهتداء

به ماسة ليستقيم عوجه ، وترقى مواهبه ، وهذا المعنى ، هو ما يشير إليه رسول الله ﷺ فى قوله : « ما من الأنبياء نبى إلا أعطَى ما مثله آمن عليه البَشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيًا أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا » (١) .

وهكذا كتب الله لمعجزة الإسلام الخلود ، فضعفت القدرة الإنسانية مع تراخى الزمن وتقدم العلم عن معارضتها .

والحديث عن إعجاز القرآن ضرب من الإعجاز لا يصل الباحث فيه إلى سر جانب منه حتى يجد وراءه جوانب أخرى يكشف عن سر إعجازها الزمن ، فهو كما يقول الرافعى : « ما أشبه القرآن الكريم فى تركيب إعجازه وإعجاز تركيبه بصورة كلامية من نظام هذا الكون الذى اكتنفه العلماء من كل جهة ، وتعاوروه من كل ناحية ، وأخلقوا جوانبه بحثًا وتفتيشًا ، ثم هو بعد لا يزال عندهم على كل ذلك خلقًا جديدًا ، ومرامًا بعيدًا » .

* * *

تعريف الإعجاز وإثباته

الإعجاز : إثبات العجز . . . والعجز فى التعارف : اسم للقصور عن فعل الشىء ، وهو ضد القدرة ، وإذا ثبت الإعجاز ظهرت قدرة المعجز ، والمراد بالإعجاز هنا : إظهار صدق النبى ﷺ فى دعوى الرسالة بإظهار عجز العرب عن معارضته فى معجزته الخالدة - وهى القرآن - وعجز الأجيال بعدهم .

والمعجزة : أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى سالم عن المعارضة .

والقرآن الكريم تحدى به النبى ﷺ العرب ، وقد عجزوا عن معارضته مع طول باعهم فى الفصاحة والبلاغة ، ومثل هذا لا يكون إلا معجزًا .

فقد ثبت أن الرسول ﷺ تحدى العرب بالقرآن على مراحل ثلاث :

(أ) تحداهم بالقرآن كله فى أسلوب عام يتناولهم ويتناول غيرهم من الإنس والجن تحديًا يظهر على طاقتهم مجتمعين ، بقوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ

---

(١) رواه البخارى .

الإنسُ وَالجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (١) .

(ب) ثم تحداهم بعشر سور منه فى قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللهِ ﴾ (٢) .

(ج) ثم تحداهم بسورة واحدة منه فى قوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ (٣) ، وكرَّر هذا التحدى فى قوله : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِثْلِهِ ﴾ (٤) .

ومن عنده إلمام قليل بتاريخ العرب وأدب لغتهم يدرك العوامل السابقة لبعثة الرسول ﷺ التى رقت بلغة العرب وهذَّبت لسانها وجمعت خير ما فى لهجاتها من أسواق الأدب والمفاخرة بالشعر والنثر ، حتى انتهى مصب جداول الفصاحة وإدارة الكلام بالبيان فى لغة قريش التى نزل بها القرآن ، وما كان عليه العرب من صَلَف يعلو بأحدهم على أبناء عمومته أنفًا وكبرًا مضرب مثل فى التاريخ الذى سجل لهم أيامًا نُسِبَت إليهم لما أحدثوه فيها من معارك وحروب طاحنة ، أشعلها شرر من الكبرياء والأنفة .

ومثل هؤلاء مع توفر دواعى اللسان وقوة البيان التى يوقدها حماس القبيل ويؤججها أتون الحميَّة لو تسنى لهم معارضة القرآن الكريم لأثرَ هذا عنهم ، وتطاير خبره فى الأجيال ، فالقوم قد تصفحوا آيات الكتاب وقلَّبوها على وجوه ما نبغوا فيه من شعر ونثر فلم يجدوا مسلكًا لمحاكاته ، أو منفذًا لمعارضته ، بل جرى على

---

(١) التحدى إنما وقع للإنس دون الجن ، لأن الجن ليسوا من أهل اللسان العربى الذى جاء القرآن على أساليبه ، وإنما ذُكِروا فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالجِنُّ ﴾ تعظيمًا لإعجازه ، لأنه إذا فُرِضَ اجتماع الإنس والجن وظاهَرَ بعضهم بعضًا وعجزوا عن المعارضة كان الفريق الواحد أعجز - (والآية من سورة الإسراء : ٨٨) .

(٢) هود : ١٣ - ١٤ (٣) يونس : ٣٨ (٣) البقرة : ٢٣

ألسنتهم الحق الذى أخرسهم عفو الخاطر عندما زلزلت آيات القرآن الكريم قلوبهم كما أُثِرَ ذلك عن الوليد بن المغيرة ، وعندما عجزت حيلتهم رموه بقول باهت فقالوا: سحر يُؤثر ، أو شاعر مجنون ، أو أساطير الأولين ، ولم يكن لهم بد أمام العجز والمكابرة إلا أن يُعَرِّضوا رقابهم للسيوف ، وكأن اليأس القاتل ينقل بنيه من نظرتهم للحياة الطويلة والعمر المديد إلى ساعة الاحتضار فيستسلمون للموت الزؤام ، وبهذا ثبت إعجاز القرآن بلا مراء .

وكان سماعه حُجة ملزمة : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ﴾ (١) ، وكان ما يحتويه من نواحى الإعجاز يفوق كل معجزة كونية سابقة ويُغنى عنها جميعًا : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ، قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ (٢) .

وعجز العرب عن معارضة القرآن مع توفر الدواعى عجز للغة العربية فى ريعان شبابها وعنفوان قوَّتها .

والإعجاز لسائر الأمم على مر العصور ظل ولا يزال فى موقف التحدى شامخ الأنف ، فأسرار الكون التى يكشف عنها العلم الحديث ما هى إلا مظاهر للحقائق العليا التى ينطوى عليها سر هذا الوجود فى خالقه ومدبره ، وهو ما أجمله القرآن أو أشار إليه - فصار القرآن بهذا مُعْجِزًا للإنسانية كافة .

* * *

وجوه إعجاز القرآن (٣)

لقد كان لنشأة علم الكلام فى الإسلام أثر أصدق ما يُقال فيه : إنه كلام فى كلام ، وما فيه من وميض التفكير يجر متتبعه إلى مجاهل من القرآن بعضها فوق

---

(١) التوبة : ٦ . (٢) العنكبوت : ٥٠ - ٥١

(٣) ذكر العلماء فى وجوه الإعجاز ما يربو على عشرة أوجه ، وسنقتصر على أهمها .

بعض ، وقد بدأت مأساة علماء الكلام فى القول بخلق القرآن ، ثم اختلفت آراؤهم وتضاربت فى وجوه إعجازه :

(أ) فذهب أبو إسحاق إبراهيم النظام [1] ومَن تَابعه - كالمرتضى من الشيعة - إلى أن إعجاز القرآن كان بالصرفة ، ومعنى الصرفة فى نظر النظام : أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها ، فكان هذا الصرف خارقًا للعادة ، ومعناها فى نظر المرتضى : أن الله سلبهم العلوم التى يُحتاج إليها فى المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن - وهو قول يدل على عجز ذويه ، فلا يُقال فيمن سُلِبَ القدرة على شىء أن الشىء أعجزه ما دام فى مقدوره أن يأتى به فى وقت ما ، وإنما المُعْجِز حينئذ هو قدر الله ، فلا يكون القرآن مُعْجِزًا ، وحديثنا عن إعجاز مضاف إلى القرآن سوف يظل ثابتًا له فى كل عصر ، لا عن إعجاز الله .

قال القاضى أبو بكر الباقلانى : « ومما يُبطل القول بالصرفة ، أنه لو كانت المعارضة ممكنة ، وإنما منع منها الصرفة ، لم يكن الكلام معجزًا ، وإنما يكون المنع مُعْجِزًا ، فلا يتضمن الكلام فضلاً على غيره فى نفسه » .

والقول بالصرفة قول فاسد يرد عليه القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [2] فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ، ولو سُلِبوا القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم ، لمنزلته منزلة اجتماع الموتى ، ولبس عجز الموتى بكبير يُحتفل بذكره .

(ب) وذهب قوم إلى أن القرآن مُعْجِز ببلاغته التى وصلت إلى مرتبة لم يُعهد لها مثيل - وهذه النظرة نظرة أهل العربية الذين يولعون بصور المعانى الحيَّة فى النسج المُحكم ، والبيان الرائع .

---

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام شيخ الجاحظ ، وأحد رؤوس المعتزلة ، وإليه تنسب الفرقة النظامية ، توفى فى خلافة المعتصم سنة بضع وعشرين ومائتين .

(٢) الإسراء : ٨٨

(ج) وبعضهم يقول : إن وجه إعجازه فى تضمنه البديع الغريب المخالف لما عُهِدَ فى كلام العرب من الفواصل والمقاطع .

(د) ويقول آخرون : بل إعجازه فى الإخبار عن المغيِّبات المستقبلة التى لا يُطَّلع عليها إلا بالوحى ، أو الإخبار عن الأمور التى تقدمت منذ بدء الخلق بما لا يمكن صدوره من أمى لم يتصل بأهل الكتاب .

كقوله تعالى فى أهل بدر : ﴿ سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِى أَدْنَى الأَرْضِ ، وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ، مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ (٥) ، وسائر قصص الأوَّلين .

وهذا قول مردود ، لأنه يستلزم أن الآيات التى لا خير فيها عن المغيِّبات المستقبلة والماضية لا إعجاز فيها ، وهو باطل ، فقد جعل الله كل سورة معجزة بنفسها (٦) .

(هـ) وذهب جماعة إلى أن القرآن مُعْجِز لما تضمنه من العلوم المختلفة ، والحِكَم البليغة .

وهناك وجوه أخرى للإعجاز تدور فى هذا الفَلَك جمعها بعضهم فى عشرة أو أكثر .

والحقيقة أن القرآن مُعْجِز بكل ما يتحمله هذا اللَّفظ من معنى :

فهو مُعْجِز فى ألفاظه وأسلوبه ، والحرف الواحد منه فى موضعه من الإعجاز

---

(١) القمر : ٤٥ (٢) الفتح : ٢٧ (٣) النور : ٥٥

(٤) الروم : ١ - ٣ (٥) هود : ٤٩

(٦) انظر : « البرهان » للزركشى (٢/ ٩٥ - ٩٦) .

الذى لا يُغنى عنه غيره فى تماسك الكلمة ، والكلمة فى موضعها من الإعجاز فى تماسك الجملة ، والجملة فى موضعها من الإعجاز فى تماسك الآية .

وهو مُعْجِز فى بيانه ونظمه ، يجد فيه القارئ صورة حية للحياة والكون والإنسان .

وهو مُعْجِز فى معانيه التى كشفت الستار عن الحقيقة الإنسانية ورسالتها فى الوجود .

وهو مُعْجِز بعلومه ومعارفه التى أثبت العلم الحديث كثيرًا من حقائقها المغيّبة .

وهو مُعْجِز فى تشريعه وصيانته لحقوق الإنسان وتكوين مجتمع مثالى تسعد الدنيا على يديه .

والقرآن - أولاً وآخرًا - هو الذى صيَّر العرب رعاة الشاء والغنم ساسة شعوب وقادة أمم ، وهذا وحده إعجاز .

قال الخطابى فى كتابه [1] : « فخرج من هذا أن القرآن إنما صار مُعْجِزًا لأنه جاء بأفصح الألفاظ ، فى أحسن نظوم التأليف ، متضمنًا أصح المعانى ، من توحيد الله وتنزيهه فى صفاته ، ودعاء إلى طاعته ، وبيان لمنهاج عبادته ، فى تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ونهى عن منكر ، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق ، وزجر عن مساويها ، واضعًا كل شىء منها موضعه الذى لا يُرى شىء أولى منه ، ولا يُتوهم فى صورة العقل أمر أليق به منه ، مودعًا أخبار القرون الماضية وما نزل من مثلات الله بمن عصى وعاند منهم ، منبئًا عن الكوائن المستقبَلة فى الأعصار الماضية من الزمان - جامعًا فى ذلك بين الحجة والمحتج له ، والدليل والمدلول عليه ، ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه ، وإنباء عن وجوب ما أمر به ونهى عنه . .

ومعلوم أن الإنسان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق ،

---

(١) هو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابى ، فى كتابه « بيان إعجاز القرآن » ، طبع ضمن ثلاثة رسائل بمطبعة المعارف ، بتحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، وانظر : « البرهان » للزركشى (٢/ ١٠١) وما بعدها .

أمر تعجز عنه قوى البشر ، ولا تبلغه قدرتهم ، فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله » .

* * *

القدر المعجز من القرآن

(أ) يذهب المعتزلة إلى أن الإعجاز يتعلق بجميع القرآن لا ببعضه ، أو بكل سورة برأسها .

(ب) ويذهب بعضهم إلى أن المُعْجِز منه القليل والكثير دون تقييد بالسورة لقوله تعالى : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ (١) .

(جـ) ويذهب آخرون إلى أن الإعجاز يتعلق بسورة تامة ولو قصيرة ، أو قدرها من الكلام كآية واحدة أو آيات .

ولقد وقع التحدى بالقرآن كله : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ (٢) .

وبعشر سور : ﴿ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ ﴾ (٣) .

وبسورة واحدة : ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ (٤) .

وبحديث مثله : ﴿ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ ﴾ (٥) .

ونحن لا نرى الإعجاز فى قدر معين لأننا نجده فى أصوات حروفه ووقع كلماته ، كما نجده فى الآية والسورة ، فالقرآن كلام الله وكفى .

وأيا كان وجه الإعجاز ، أو القدر المعجز ، فإن الباحث المنصف الذى يطلب الحق إذا نظر فى القرآن من أى النواحى أحب : من ناحية أسلوبه ، أو من ناحية علومه ، أو من ناحية الأثر الذى أحدثه فى العالَم وغيَّر به وجه التاريخ ، أو من تلك النواحى مجتمعة ، وجد الإعجاز واضحًا جليا ، ويجدر بنا أن نأتى بكلمة فى

---

(١) الطور : ٣٤ (٢) الإسراء : ٨٨ (٣) هود : ١٣

(٤) يونس : ٣٨ (٥) الطور : ٣٤

هذه النواحى الثلاثة من الإعجاز القرآنى : ناحية الإعجاز اللُّغوى ، وناحية الإعجاز العلمى ، وناحية الإعجاز التشريعى .

* * *

الإعجاز اللُّغوى

لقد مارس أهل العربية فنونها منذ نشأت لغتهم حتى شبت وترعرعت ، وأصبحت فى عنفوان شبابها عملاقًا معطاء ، واستظهروا شعرها ونثرها ، وحكمها وأمثالها ، وطاوعهم البيان فى أساليب ساحرة ، حقيقة ومجازًا ، إيجازًا وإطنابًا ، حديثًا ومقالاً ، وكلما ارتفعت اللُّغة وتسامت ، وقفت على أعتاب لغة القرآن فى إعجازه اللُّغوى كسيرة صاغرة ، تتحنى أمام أسلوبه إجلالاً وخشية ، وما عهد تاريخ العربية حقبة من أحقاب التاريخ ، ازدهرت فيها اللُّغة إلا وتطامن أعلامها وأساتذتها أمام البيان القرآنى اعترافًا بسموه ، وإدراكًا لأسراره ، ولا عجب « فتلك سنة الله فى آياته التى يصنعها بيديه ، لا يزيدك العلم بها والوقوف على أسرارها إلا إذعانًا لعظمتها ، وثقة بالعجز عنها ، ولا كذلك صناعات الخلق ، فإن فضل العلم بها يمكنك منها ويفتح لك الطريق إلى الزيادة عليها ، ومن هنا كان سحرة فرعون هم أول المؤمنين برب موسى وهارون » (١) .

والذين تملكهم الغرور ، وأصابتهم لوثة الإعجاب بالنفس ، وحاولوا التطاول على أسلوب القرآن ، حاكوه بكلام فارغ ، أشبه بالسخف والتفاهة والهذيان والعبث ، وارتدوا على أعقابهم خاسرين ، كالمتنبئين وأشباه المتنبئين ، من الدجالين والمغرورين .

وقد شهد التاريخ فرسانًا للعربية خاضوا غمارها وأحرزوا قصب السبق فيها ، فما استطاع أحد منهم أن تُحَدِّثه نفسه بمعارضة القرآن ، إلا باء بالخزى والهوان ، بل إن التاريخ سجل هذا العجز على اللُّغة ، فى أزهى عصورها ، وأرقى أدوارها ، حين نزل هذا القرآن ، وقد بلغت العربية أشدها ، وتوافرت لها عناصر الكمال والتهذيب فى المجامع العربية وأسواقها ، ووقف القرآن من أصحاب هذه اللُّغة موقف التحدى ، فى صور شتَّى ، متنزلاً معهم إلى الأخف من عشر سور إلى

---

(١) « النبأ العظيم » (ص٨١) .

سورة إلى حديث مثله ، فما استطاع أحد أن يباريه أو يجاريه منهم ، وهم أهل الأنفة والعزة والإباء ، ولو وجدوا قدرة على محاكاة شيء منه ، أو وجدوا ثغرة فيه ، لما ركبوا المركب الصعب أمام هذا التحدى ، بإشهار السيوف ، بعد أن عجز البيان ، وتحطمت الأقلام .

وتتابعت القرون لدى أهل العربية ، وظل الإعجاز القرآنى اللُّغوى راسخًا كالطود الشامخ ، تذل أمامه الأعناق خاضعة ، لا تفكر فى أن تدانيه ، فضلاً عن أن تساميه ، لأنها أشد عجزًا وأقل طمعًا فى هذا المطلب العزيز ، وسيظل الأمر كذلك إلى يوم الدين .

ولا يستطيع أحد أن يدعى عدم الحاجة إلى معارضة القرآن ، وإن كان ذلك ممكنًا ، فإن التاريخ يشهد بأنه قد توافرت الدواعى الملحة لدى القوم لمعارضة القرآن ، حيث وقفوا من الرسالة وصاحبها موقف الجحود والنكران ، واستثار القرآن حَميَّتهم ، وسفَّه أحلامهم ، وتحداهم تحديًا سافرًا يُثير حفيظة الجبان الرِعديد مع ما كانوا عليه من أنفة وعزة ، فسلكوا مع الرسول ﷺ مسالك شتَّى ، ساوموه بالمال والمُلك ليكف عن دعوته ، وقاطعوه ومَن معه حتى يموتوا جوعًا ، واتهموه بالسحر والجنون ، وتآمروا على حبسه ، أو قتله أو إخراجه ، وقد دلَّهم على الطريق الوحيد لإسكاته وهو أن يجيئوه بكلام مثل الذى جاءهم به ، « ألم يكن ذلك أقرب إليهم وأبقى عليهم لو كان أمره فى يدهم ؟ ولكنهم طرقوا الأبواب كلها إلا هذا الباب ، وكان القتل والأسر والفقر والذل وكل أولئك أهون عليهم من ركوب هذا الطريق الوعر الذى دلَّهم عليه ، فأى شيء يكون العجز إن لم يكن هذا هو العجز » ؟

والقرآن الذى عجز العرب عن معارضته لم يخرج عن سُنن كلامهم ، ألفاظًا وحروفًا ، تركيبًا وأسلوبًا ، ولكنه فى اتساق حروفه ، وطلاوة عبارته ، وحلاوة أسلوبه ، وجرس آياته ، ومراعاة مقتضيات الحال فى ألوان البيان ، فى الجُمل الاسمية والفعلية ، وفى النفى والإثبات ، وفى الذكر والحذف ، وفى التعريف والتنكير ، وفى التقديم والتأخير ، وفى الحقيقة والمجاز ، وفى الإطناب والإيجاز ، وفى العموم والخصوص ، وفى الإطلاق والتقييد ، وفى النص والفحوى - وهلم جرًّا - ولكن القرآن فى هذا ونظائره بلغ الذروة التى تعجز أمامها القدرة اللُّغوية لدى البَشر .

عن ابن عباس : « أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى ﷺ ، فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رَقَّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال له : يا عم : إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه ، فإنك أتيت محمدًا لتتعرض لما قِبَله ، قال : قد علمت قريش أنى من أكثرها مالاً ، قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وكاره ، قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقوله شيئاً من هذا ، ووالله إنَّ لقوله الذى يقول لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو وما يُعْلَى ، وإنه ليحطم ما تحته ، قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه ، قال : فدعنى حتى أفكر ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر ، يأثره عن غيره ، فنزلت : ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ (١) .

وحيثما قلَّب الإنسان نظره فى القرآن وجد أسرارًا من الإعجاز اللُّغوى .

يجد ذلك فى نظامه الصوتى البديع بجرس حروفه ، حين يسمع حركاتها وسكناتها ، ومدَّاتها وغُنَّائها ، وفواصلها ومقاطعها ، فلا تمل أذنه السماع ، بل لا تفتأ تطلب منه المزيد .

ويجد ذلك فى ألفاظه التى تفى بحق كل معنى فى موضعه ، لا ينبو منها لفظ يقال إنه زائد ، ولا يعثر الباحث على موضع يقول إنه يحتاج إلى إثبات لفظ ناقص .

ويجد ذلك فى ضروب الخطاب التى يتقارب فيها أصناف الناس فى الفهم بما تطيقه عقولهم ، فيراها كل واحد منهم مقدَّرة على مقياس عقله ووفق حاجته ، من العامة والخاصة ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (٢) .

ويجد ذلك فى إقناع العقل وإمتاع العاطفة ، بما يفى بحاجة النفس البَشرية تفكيرًا ووجدانًا فى تكافؤ واتزان ، فلا تطغى قوة التفكير على قوة الوجدان ، ولا قوة الوجدان على قوة التفكير .

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه ، والبيهقى فى « الدلائل » - (والآية من سورة المدثر : ١١) .
(٢) القمر : ١٧ .

وهكذا حيثما قلَّب النظر قامت أمامه حجة القرآن فى التحدى والإعجاز [1] .

قال القاضى أبو بكر الباقلانى [2] : « والذى يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز وجوه : منها ما يرجع إلى الجملة ، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد ، وذلك أن الطرق التى يتقيد بها الكلام البديع المنظوم ، تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ، ثم إلى أصناف الكلام المعدَّل المسجَّع ، ثم إلى معدَّل موزون غير مسجَّع ، ثم إلى ما يُرسل إرسالاً فتُطلب فيه الإصابة والإفادة وإفهام المعانى المعترضة على وجه بديع ، وترتيب لطيف ، وإن لم يكن معتدلاً فى وزنه ، وذلك شبيه بجملة الكلام الذى لا يتعمل يتصنع له ، وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ، ومباين لهذه الطرق ، فليس من باب السجع ، وليس من قبيل الشعر ، وتبيَّن بخروجه عن أصناف كلامهم ، وأساليب خطابهم أنه خارج عن العادة ، وأنه مُعْجِز ، وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن ، وتميز حاصل فى جميعه . .

وليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع ، والمعانى اللَّطيفة ، والفوائد الغزيرة ، والحِكَم الكثيرة ، والتناسب فى البلاغة ، والتشابه فى البراعة على هذا الطول - وعلى هذا القدر ، وإنما تُنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة ، وألفاظ قليلة ، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها الاختلال والاختلاف ، والتكلف والتعسف ، وقد جاء القرآن على كثرته وطوله متناسبًا فى الفصاحة على ما وصفه الله عز من قائل : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَّثَانِيَ ، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى

---

(١) راجع الإعجاز اللُّغوى فى « النبأ العظيم » بتوسع .

(٢) هو القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى صاحب كتاب « إعجاز القرآن » وكتاب « التقريب والإرشاد » فى أصول الفقه ، توفى سنة ٤٠٣ هجرية .

ذكْرِ الله ﴾ [1] ، ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ [2] . فأخبر أن كلام الآدمى إن امتد وقع فيه التفاوت وبان عليه الاختلال .

وعجيب نظم القرآن وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التى يتصرف فيها - من ذكر قصص ومواعظ ، واحتجاج وحِكَم وأحكام ، وإعذار وإنذار ، ووعد ووعيد ، وتبشير وتخويف ، وأخلاق كريمة ، وشيم رفيعة ، وسِيَر مأثورة ، وغير ذلك من الوجوه التى يشتمل عليها ، ونجد كلام البليغ الكامل ، والشاعر المفلق ، والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور ، فمن الشعراء مَن يجود فى المدح دون الهجو ، ومنهم مَن يبرز فى الهجو دون المدح ، ومنهم مَن يسبق فى التقريظ دون التأبين ، ومنهم مَن يقرب فى وصف الإبل والخيل ، أو سير اللَّيل ، أو وصف الحرب ، أو وصف الروض ، أو وصف الخمر ، أو الغَزَل أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتداوله الكلام ، ولذلك ضُرِبَ المثل بامرئ القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، وبزهير إذا رغب ، ومثل ذلك يختلف فى الخُطَب والرسائل وسائر أجناس الكلام . .

وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التى قدَّمنا ذكرها على حد واحد فى حسن النَظْم ، وبديع التأليف والوصف ، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا . . فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر » [3] .

وإذا عجز المتناهون فى الفصاحة ، ومعرفة وجوه الخطاب ، وطرق البلاغة ، وفنون القول ، وقامت الحُجة عليهم ، فقد لزمت الحُجة مَن دونهم من العرب ، ولزمت غيرهم من الأعاجم ، لأن تحقق عجز مَن استكمل معرفة تصاريف الخطاب ، ووجوه الكلام ، وأساليب البيان ؛ يقطع بعجز مَن دونه من باب أولى .

* * *

الإعجاز العلمى

يخطئ كثير من الناس حين يحرصون على أن يتضمن القرآن الكريم كل نظرية

---

(١) الزمر : ٢٣ (٢) النساء : ٨٢ (٣) إعجاز القرآن بتصرف .

علمية ، وكلما ظهرت نظرية جديدة التمسوا لها محملاً فى آية يتأولونها بما يوافق هذه النظرية .

ومنشأ الخطأ فى هذا أن العلوم تتجدد نظرياتها مع الزمن تبعًا لسُنَّة التقدم ، فلا تزال فى نقص دائم يكتنفه الغموض أحيانًا ، والخطأ أحيانًا أخرى ، وتستمر هكذا حتى تقترب من الصواب ، وتصل إلى درجة اليقين ، وأى نظرية منها تبدأ بالحدس والتخمين وتخضع للتجربة حتى يثبت يقينها ، أو يتضح زيفها وخطؤها ، ولهذا كانت عرضة للتبديل ، وكثير من القواعد العلمية التى ظن الناس أنها أصبحت من المسلَّمات تتزعزع بعد ثبوت ، وتتقوَّض بعد رسوخ ، ثم يستأنف الباحثون تجاربهم فيها مرة أخرى .

والذين يُفسِّرون القرآن الكريم بما يطابق مسائل العلم ، ويحرصون على أن يستخرجوا منه كل مسألة تظهر فى أفق الحياة العلمية ، يُسيئون إلى القرآن من حيث يظنون أنهم يُحسنون صنعًا ، لأن هذه المسائل التى تخضع لسُنَّة التقدم تتبدل ، وقد تتقوَّض من أساسها وتبطل ، فإذا فسرنا القرآن بها تعرضنا فى تفسيره للنقائض كلما تبدلت القواعد العلمية ، أو تتابعت الكشوف بجديد ينقض القديم ، أو يقين يُبطل التخمين .

والقرآن الكريم كتاب عقيدة وهداية ، يخاطب الضمير فيحيى فيه عوامل النمو والارتقاء ، وبواعث الخير والفضيلة .

وإعجازه العلمى ليس فِى اشتماله على النظريات العلمية التى تتجدَّد وتتبدل وتكون ثمرة للجهد البشرى فى البحث والنظر ، وإنما فى حثه على التفكير ، فهو يحث الإنسان على النظر فى الكون وتدبره ، ولا يشل حركة العقل فى تفكيره ، أو يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وليس ثمة كتاب من كتب الأديان السابقة يكفل هذا بمثل ما يكفله القرآن .

فأى مسألة من مسائل العلم ، أو قاعدة من قواعده ، يثبت رسوخها ، ويتبين يقينها ، تكون محققة لما حث عليه القرآن من تفكير سليم ، ولا تتعارض معه بحال من الأحوال ، وقد تقدمت العلوم وكثرت مسائلها ولم يتعارض شىء ثابت منها مع آية من آيات القرآن ، وهذا وحده إعجاز .

والقرآن الكريم يجعل التفكير السديد والنظر الصائب فى الكون وما فيه أعظم وسيلة من وسائل الإيمان بالله .

إنه يحث المسلم على التفكير فى مخلوقات الله فى السماء والأرض : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِى الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (١) .

ويحثه على التفكير فى نفسه ، وفى الأرض التى يعمرها ، وفى الطبيعة التى تحيط به : ﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِى أَنفُسِهِم ، مَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (٢) .

﴿ وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِى أَنفُسِكُمْ ، أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ (٣) .

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (٤) .

ويثير فيه الحس العلمى للتفكير والفهم والتعقل : ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٥) .

﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٦) .

﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٧) .

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٨) .

﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٩) .

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٠) .

---

(١) آل عمران : ١٩٠ -١٩١
(٢) الروم : ٨
(٣) الذاريات : ٢٠ - ٢١
(٤) الغاشية : ١٧ - ٢٠
(٥) البقرة : ٢١٩
(٦) الحشر : ٢١
(٧) يونس : ٢٤
(٨) الرعد : ٣
(٩) الأعراف : ٣٢
(١٠) الأنعام : ٩٧

﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ (١) .

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ (٢) .

ويرفع القرآن مكانة المسلم بفضيلة العلم : ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (٣) .

ولا يُسوِّى بين عالِم وجاهل : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

ويأمر المسلم أن يسأل ربه نعمة العلم : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ (٥) .

ويجمع الله علوم الفَلَك والنبات وطبقات الأرض والحيوان ويجعل ذلك من بواعث خشيته : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ، وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ (٦) .

وهكذا فإن إعجاز القرآن العلمى فى أنه يحث المسلمين على التفكير ، ويفتح لهم أبواب المعرفة ، ويدعوهم إلى ولوجها ، والتقدم فيها ، وقبول كل جديد راسخ من العلوم .

وفى القرآن مع هذا إشارات علمية سبقت مساق الهداية ، فالتلقيح فى النبات : ذاتى وخلطى ، والذاتى : ما اشتملت زهرته على عضوى التذكير والتأنيث ، والخلطى : هو ما كان عضو التذكير فيه منفصلاً عن عضو التأنيث كالنخيل ، فيكون التلقيح بالنقل ، ومن وسائل ذلك الرياح ، وجاء فى هذا قول الله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ (٧) .

« والأوكسچين » ضرورى لتنفس الإنسان ، ويقل فى طبقات الجو العليا ، فكلما

---

(١) الأنعام : ٦٥ (٢) الأنعام : ٩٨ (٣) المجادلة : ١١
(٤) الزمر : ٩ (٥) طه : ١١٤ (٦) فاطر : ٢٧ - ٢٨
(٧) الحجر : ٢٢

ارتفع الإنسان فى أجواء السماء أحس بضيق الصدر وصعوبة التنفس ، والله تعالى يقول : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ، وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ ﴾ (١) .

وقد ساد الاعتقاد بأن الذرَّة هى الجزء الذى لا يقبل التجزئة ، وفى القرآن : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلا فِى السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢) ولا أصغر من الذرَّة سوى تحطيم الذرَّة .

وفى علم الأجنة جاء قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ البَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ، وَنُقِرُّ فِى الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ (٥) .

وفى وحدة الكون وحاجة الحياة إلى عنصر الماء يقول تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ، وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ، أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٦) .

تلك الإشارات العلمية ونظائرها فى القرآن جاءت فى سياق الهداية الإلهية ، وللعقل البَشرى أن يبحث فيها ويتدبر .

يقول الأستاذ سيد قطب فى تفسير قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ ، قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالحَجِّ ﴾ (٧) : « اتجه الجواب إلى واقع حياتهم العملى لا إلى مجرد العلم النظرى ، وحدَّثهم عن وظيفة الأهلَّة فى واقعهم وفى حياتهم ولم

---

(١) الأنعام : ١٢٥ (٢) يونس : ٦١ (٣) الطارق : ٥ - ٧
(٤) العلق : ٢ (٥) الحج : ٥ (٦) الأنبياء : ٣٠
(٧) البقرة : ١٨٩

يحدثهم عن الدورة الفلكية للقمر ، وكيف تتم ؟ وهى داخلة فى مدلول السؤال . . إن القرآن قد جاء لما هو أكبر من تلك المعلومات الجزئية ، ولم يجىء ليكون كتاب علم فلكى ، أو كيماوى أو طبى . . كما يحاول بعض المتحمسين له أن يلتمسوا فيه هذه العلوم ، أو كما يحاول بعض الطاعنين فيه أن يلتمسوا مخالفاته لهذه العلوم .

إن كلتا المحاولتين دليل على سوء الإدراك لطبيعة هذا الكتاب ووظيفته ومجال عمله ، إن مجاله هو النفس الإنسانية والحياة الإنسانية ، وإن وظيفته أن ينشئ تصورًا عامًا للوجود وارتباطه بخالقه ، ولوضع الإنسان فى هذا الوجود وارتباطه بربه ، وأن يقيم على أساس هذا التصور نظامًا للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم كل طاقاته ومن بينها طاقته العقلية ، التى تقوم هى بعد تنشئتها على استقامة ، وإطلاق المجال لها لتعمل - بالبحث العلمى - فى الحدود المتاحة للإنسان ، وبالتجريب والتطبيق ، وتصل إلى ما تصل إليه من نتائج ، ليست نهائية ولا مطلقة بطبيعة الحال . .

وإنى لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه ، وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه ، وأن يستخرجوا منه جزئيات فى علوم الطب والكيمياء والفَلَكَ وما إليها . . كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه . .

إن الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة . . أما ما يصل إليه البحث الإنسانى - أيا كانت الأدوات المتاحة له - فهى حقائق غير نهائية ولا قاطعة ، وهى مقيدة بحدود تجاربه وظروف هذه التجارب وأدواتها ، فمن الخطأ المنهجى - بحكم المنهج العلمى الإنسانى ذاته - أن تعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية ، وهى كل ما يصل إليه العلم البشرى .

هذا بالقياس إلى الحقائق العلمية ، والأمر أوضح بالقياس إلى النظريات والفروض التى تسمى « علمية » . . فهى قابلة دائمًا للتغيير والتعديل والنقص والإضافة ، بل قابلة لأن تنقلب رأسًا على عقب ، بظهور أداة كشف جديدة ، أو بتفسير جديد لمجموعة الملاحظات القديمة .

وكل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم من نظريات

متجددة متغيرة - أوحتى بحقائق علمية ليست مطلقة كما أسلفنا - تحتوى أولاً على خطأ منهجى أساسى ، كما أنها تنطوى على معان ثلاثة ، كلها لا يليق بجلال القرآن الكريم .

الأولى : هى الهزيمة الداخلية التى تخيل لبعض الناس ، أن العلم هو المهيمن والقرآن تابع ، ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم ، أو الاستدلال له من العلم ، على حين أن القرآن كتاب كامل فى موضوعه ، ونهائى فى حقائقه ، والعلم ما يزال فى موضوعه ينقض اليوم ما أثبته بالأمس ، وكل ما يصل إليه غير نهائى ولا مطلق ، لأنه مقيَّد بوسط الإنسان وعقله وأدواته ، وكلها ليس من طبيعتها أن تُعطى حقيقة واحدة نهائية مطلقة .

والثانية : سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته ، وهى أنه حقيقة نهائية مطلقة تعالج بناء الإنسان بناء يتفق - بقدر ما تسمح طبيعة الإنسان النسبية - مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الإلهى ، حتى لا يصطدم الإنسان بالكون من حوله ، بل يصادقه ويعرف بعض أسراره ، ويستخدم بعض نواميسه من خلافته ، نواميسه التى تكشف له بالنظر والبحث والتجريب والتطبيق ، وفق ما يهديه إليه عقله الموهوب له ليعمل لا ليتسلم المعلومات المادية جاهزة .

والثالثة : هى التأويل المستمر - مع التحمل والتكلف - لنصوص القرآن كى نحملها ونلهث بها وراء الفروض والنظريات التى لا تثبت ولا تستقر ، وكل يوم يجد فيها جديد » [1] .

* * *

الإعجاز التشريعى

أودع الله فى الإنسان كثيرًا من الغرائز التى تعتمل فى النفس وتؤثر عليها فى اتجاهات الحياة ، ولئن كان العقل الرشيد يعصم صاحبه من الزلل فإن النزعات النفسية المنحرفة تطغى على سلطان العقل ، ولا يستطيع العقل أن يكبح جماحها فى

---

(١) اقتبسنا هذه الفقرات من كتاب « فى ظلال القرآن » بتصرف .

كل حال ، لهذا كان لابد لاستقامة الإنسان من تربية خاصة لغرائزه ، تهذبها وتنميها ، وتقودها إلى الخير والفلاح .

والإنسان مدنى بالطبع ، فهو فى حاجة إلى غيره ، وغيره فى حاجة إليه ، وتعاون الإنسان مع أخيه الإنسان ضرورة اجتماعية يفرضها العمران البشرى ، وكثيرًا ما يظلم الإنسان أخاه بدافع الأثرة وحب السيطرة ، فلو تُرِكَ أمر الناس دون ضابط يحدد علاقاتهم ، وينظم أحوال معاشهم ، ويصون حقوقهم ، ويحفظ حرماتهم لصار أمرهم فوضى ، ولذا كان لابد لأى مجتمع بشرى من نظام يحكم زمامه ، ويحقق العدل بين أفراده .

وبين تربية الفرد وصلاح الجماعة ، وشائج قوية لا تنفصم عراها ، فإن هذا يقوم على تلك ، فصلاح الفرد من صلاح الجماعة ، وصلاح الجماعة بصلاح الفرد . .

وقد عرفت البشرية فى عصور التاريخ ألوانًا مختلفة من المذاهب والنظريات والنظم والتشريعات التى تستهدف سعادة الفرد فى مجتمع فاضل ، ولكن واحدًا منها لم يبلغ من الروعة والإجلال مبلغ القرآن فى إعجازه التشريعى .

إن القرآن يبدأ بتربية الفرد ، لأنه لبنة المجتمع ويُقيم تربيته على تحرير وجدانه ، وتحمله التبعة .

يحرر القرآن وجدان المسلم بعقيدة التوحيد التى تُخَلِّصه من سلطان الخرافة والوهم ، وتفك أسره من عبودية الأهواء والشهوات ، حتى يكون عبدًا خالصًا لله ، يتجرد للإلَه الخالق المعبود ، ويستعلى بنفسه عما سواه ، فلا حاجة للمخلوق إلا لدى خالقه ، الذى له الكمال المطلق ، ومنه يمنح الخير للخلائق كلها ، إنه خالق واحد وإلَه واحد ، لا أول له ولا آخر ، قدير على كل شىء ، عليم بكل شىء ، محيط بكل شىء ، وليس كمثله شىء .

عالَم مخلوق خلقه الله ، ويرجع إلى الله ، ويفنى كما يوجد بمشيئة الله ، وهذه أكمل عقيدة فى العقل وأكمل عقيدة فى الدين .

﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (١) .

﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ، لَهُ الحُكْمُ ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٣) .

﴿ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾ (٤) .

﴿ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ (٥) .

﴿ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (٦) .

﴿ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ (٧) .

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ (٨) .

﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾ (٩) .

ويؤكد القرآن الكريم وحدانية الله بالحجج القاطعة التى تقوم على المنطق العقلى السليم ، فلا تقبل الجدال والمراء : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (١٠) .

﴿ قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِى العَرْشِ سَبِيلاً ﴾ (١١) .

وإذا صحت عقيدة المسلم كان عليه أن يأخذ بشرائع القرآن فى الفرائض والعبادات ، وكل عبادة مفروضة يراد بها صلاح الفرد ولكنها مع ذلك ذات علاقة بصلاح الجماعة .

فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والجماعة واجبة على الرأى الراجح إلا لعذر ، وهى شرط فى الجمعة والعيدين ، والذى يُصَلِّى منفردًا لا يغيب عن شعوره

---

(١) سورة الإخلاص .
(٢) الحديد : ٣
(٣) القصص : ٨٨
(٤) الأنعام : ١٠٢
(٥) الأحزاب : ٢٧
(٦) البقرة : ٩٦
(٧) فصلت : ٥٤
(٨) الشورى : ١١
(٩) الأنعام : ١٠٣
(١٠) الأنبياء : ٢٢
(١١) الإسراء : ٤٢

آصرة القُربى بينه وبين الجماعة الإسلامية فى أقطار الأرض ، من شمال إلى جنوب ، ومن مشرق إلى مغرب ، لأنه يعلم أنه فى تلك اللَّحظة يتجه وجهة واحدة مع كل مسلم على ظهر الأرض ، يؤدى فريضة الصلاة ، ويستقبل معه قِبلة واحدة ، ويدعو بدعاء واحد ، وإن تباعدت بينهم الديار .

وحسب المسلم فى تربيته أن يقف بين يدى الله خمس مرات فى اليوم الواحد تمتزج حياته بشرع الله ، ويتمثل الوازع الأعلى نصب عينيه ما بين كل صلاة وصلاة : ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ (١) .

والزكاة تقتلع من النفس جذور الشُّح ، وعبادة المال ، والحرص على الدنيا ، وهى مصلحة للجماعة ، فتُقيم دعائم التعاون بين المجدودين والمحرومين ، وتُشعر النفس بتكامل الجماعة شعوراً يُخرجها من ضيق الأثرة والانفراد .

والحج سياحة تُرَوِّض النفس على المشقة ، وتفتح بصيرتها على أسرار الله فى خلقه ، وهو مؤتمر عالَمى يجتمع فيه المسلمون على صعيد واحد ، فيتعارفون ويتشاورون .

والصيام ضبط للنفس ، وشحذ لعزيمتها ، وتقوية للإرادة ، وحبس للشَهوات ، وهو مظهر اجتماعى يعيش فيه المسلمون شهراً كاملاً على نظام واحد فى طعامهم ، كما تعيش الأسرة فى البيت الواحد .

والقيام بهذه العبادات المفروضة يُربِّى المسلم على الشعور بالتبعية الفردية التى يقررها القرآن وينوط بها كل تكليف من تكاليف الدين ، وكل فضيلة من فضائل الأخلاق : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (٢) .

﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ (٣) .

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ (٤) .

وحضَّ القرآن على الفضائل المثلى التى تروض النفس على الوازع الدينى ، كالصبر والصدق والعدل والإحسان والحلم والعفو والتواضع .

---

(١) العنكبوت : ٤٥
(٢) المدثر : ٣٨
(٣) الطور : ٢١
(٤) البقرة : ٢٨٦

ومن تربية الفرد ينتقل الإسلام إلى بناء الأسرة ، لأنها نواة المجتمع ، فشرع القرآن الزواج استجابة لغريزة الجنس ، وإبقاء على النوع الإنسانى فى تناسل طاهر نظيف .

ويقوم رباط الأسرة فى الزواج على الود والرحمة والسكن النفسى والعشرة بالمعروف ، ومراعاة خصائص الرجل وخصائص المرأة ، والوظيفة الملائمة لكل منهما : ﴿ وَمِنْ آيَاتِه أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (١) .

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (٢)

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ (٣) .

ثم يأتى نظام الحكم الذى يسود المجتمع المسلم ، وقد قرَّر القرآن قواعد الحكومة الإسلامية فى أصلح أوضاعها .

فهى حكومة الشورى والمساواة ومنع السيطرة الفردية : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ ﴾ (٤) .

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ (٥) .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٦) .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ ﴾ (٧) .

وهى حكومة تقوم على العدل المطلق الذى لا يتأثر بحب الذات ، أو عاطفة القرابة ، أو العوامل الاجتماعية فى الغِنَى والفقر :

---

(١) الروم : ٢١ (٢) النساء : ١٩ (٣) النساء : ٣٤
(٤) آل عمران : ١٥٩ (٥) الشورى : ٣٨ (٦) الحجرات : ١٠
(٧) آل عمران : ٦٤

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ، إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا ، فَلا تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُواْ ، وَإِنْ تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (١) .

كما لا تؤثر فى هذا العدل شهوة الانتقام من الأعداء المبغوضين : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ للَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُواْ ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ ﴾ (٣) .

والتشريع فى الحكومة الإسلامية ليس متروكًا للناس ، فقد قرَّره القرآن ، والخروج عنه كفر وظلم وفسق : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٤) .

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٥) .

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ (٦) .

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٧) .

وقرَّر القرآن صيانة الكليات الخمسة الضرورية للحياة الإنسانية : النفس ، والدين ، والعرض ، والمال ، والعقل ، ورتَّب عليها العقوبات المنصوصة ، التى تُعرف فى الفقه الإسلامى بالجنايات والحدود : ﴿ وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِى الأَلْبَابِ ﴾ (٨) .

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُواْ كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ (٩) .

---

(١) النساء : ١٣٥ (٢) المائدة : ٨ (٣) النساء : ٥٨

(٤) المائدة : ٤٤ (٥) المائدة : ٤٥ (٦) المائدة : ٤٧

(٧) المائدة : ٥٠ (٨) البقرة : ١٧٩ (٩) النور : ٢

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ (١) .

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ (٢) .

وقرَّر القرآن العلاقات الدولية فى الحرب والسلم بين المسلمين وجيرانهم أو معاهديهم ، وهى أرفع معاملة عُرِفَتْ فى عصور الحضارة الإنسانية .

وخلاصة القول : إن القرآن دستور تشريعى كامل يُقيم الحياة الإنسانية على أفضل صورة وأرقى مثال ، وسيظل إعجازه التشريعى قرينًا لإعجازه العلمى وإعجازه اللُّغوى إلى الأبد ، ولا يستطيع أحد أن يُنكر أنه أحدث فى العالَم أثرًا غيَّر وجه التاريخ .

* * *

(١) النور : ٤

(٢) المائدة : ٣٨